قِراءةٌ في كِتاب: العُنصريّة

■ مراجعة: ميرفت إبراهيم[1]

ملخّص

يُعَـدُّ التحيُّز الغربيُّ في معالجة القضايـا القيَميّة ظاهرةً بارزة، تَتجلَّى في ازدواجيّة المَعايير التي تُطبَّقُ على مختلف الشُّـعوب والثَّقافات. هذا التحيُّز أشار إليه المفكِّرُ (نعوم تشومسـكي) في معظم مُؤلَّفاته؛ حيثُ انتقدَ السياسـات الغربيّةَ لعدم اتِّساقها مـعَ المَبادئ التي تدَّعيها. كـما لفتَ إليه موران في بعض مؤلَّفاتـه، فبيَّنَ أنَّ الغربَ يُعـاني من أزمة في الفَهمِ والتَّعامل مع التَّعقيـدات العالميّة، تقودُه إلى تطبيق معاييرَ مزدوجة في سياساته.

في هذا السِّياق، يأتي كتاب "العنصرية" لـ(فرنسوا دي فونتيت)، الذي يُقدِّم نفسَه بوصفـه محلّـلاً موضوعيًّا لظاهرةِ العُنصرية. ومع ذلك، يُلاحِـظ القارئُ أنَّ الكاتبَ قـد وقع في فخِّ ازدواجيّـةِ المَعايير التـي انتقدَها كلٌّ من (تشومسـكي) و(موران)، فعـلى الرَّغم من محاولته تقديمَ طرح حياديٍّ، لكنّ تحليلَـه تأثَّر بالتحيُّزات الثقافية والسياسيّة السّائدة في الغرب.

الكلمات المفتاحية: العُنصريّة، معاداة السامية، العِرق، الرِّقّ.

1 - باحثة في مجال الأديان المقارنة، ومدرّسة في جامعة المعارف وجامعة المصطفى العالميّة.

بطاقةُ الكتاب

عنوان الكتاب: «العُنصريّة».

مُؤلِّف الكتاب: فرنسوا دي فونتيت.

ترجمة: عاطف علبي.

دار النشر: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.

رقم الطبعة: طبعة أولى/عام ١٩٩٩م.

عدد الصفحات: ١٧٩ صفحة.

مقدِّمة

لَطالما كانت العنصريّةُ إحدى أكـثر الأيدولوجيّاتِ تأثيراً في المجتمعات؛ إذ اتَّخذت أنماطًا مختلفة عبرَ التاريخ من التَّمييز القائم على اللَّون والانتماء العِرقيِّ إلى سياسات الفصلِ العنصريِّ والإبادة الجماعيّة، وعلى الرغم من الجهود المَبذولة لمكافحتها، لا تزال العنصريّةُ قائمةً بطُرق مختلفة، سواءٌ في البِنى الاجتماعيّة أو في الخطابات الثقافيّة والسِّياسيّة.

يتنـاول (فرانسـوا دي فونتيـت - François de Fontet) في الكتاب الذي بـين أيدينا موضوعَ العنصريّةِ من زوايا متعدِّدة، مُحلِّلاً جذورَها الفكريّةَ والتاريخيّة، ومُبيِّنًا كيف تحوَّلت من نظريّات فلسفيّةٍ إلى سياساتٍ تطهيرٍ عرقيٍّ وتَمييزٍ مؤسَّسيٍّ، ويَستعرض فيه أبرزَ المُفكِّرينَ الذين أسهموا في صياغة المَذاهبِ العُنصريّةِ، مثل (غوبينو - Gobineau)، و(شمبرلين - chamberlain)، وصولاً إلى تَطبيقاتها في النّازيّة والنظام الفصل العنصريّ في إفريقيا الجنوبيّة، كما يُناقشُ تأثيرَ العُنصريّةِ على المُجتمعات الحَديثةِ، خاصّةً الولايات المتَّحدة وفرنسا، وعلاقتها بالقانون؛ وفي الختام يَربط

العنصريّةَ بالبُعد النفسيِّ والاجتماعيِّ، مُشيراً إلى ضرورة الوَعي بمخاطرها لتَجاوُزها، وبالرَّغم من الصُّورة الموضوعيّة التي سَعى لتَقديمها لكنّه لم يَسلم من المسِّ الغربيِّ الذي طَالَ كثيراً منهم.

وقد جاء الكتابُ في مقدِّمةٍ ستّةِ فصولٍ على الشَّكل الآتي:

مقدِّمة الكتاب

يُوضِّح الكاتبُ في مقدِّمة كتابه أنَّه رغمَ الانتشار الواسع لمصطلح «العنصريّة»، لكنّه لم يكنْ له وجودٌ في المعاجم والقواميس اللُّغوية، وهذا يُشير إلى أنَّه مصطلحٌ مُستحدثٌ نشأ استجابةً للوقائع والسُّلوكيّات التي برزَت لاحقًا، لا سيَّما في تصرُّفات الألمان تجاهَ اليَهود؛ وإنْ كان صحيحًا أنَّ المفهومَ الحديثَ للعُنصريّة، بمَعنى التَّمييز العِرقيِّ أو التحيُّز الاثنيِّ، إنَّما تطوَّرَ في السِّياقات الأوروبيّة خلال القرنَين الثّامن والتّاسع عشر، ولكنْ يُمكن العثورُ على جذور المفهوم في معانٍ أقدمَ، ككلمة «العَصبيّة» كما وردت في لسان العرب لابن منظور (ت ١٣١١م)، والتي تدلُّ على الأنَفة للقبيلة والدِّفاع عنها، سواءٌ أكانوا ظالمينَ أم مَظلومينَ، و"العرق" و"الجنس" كما وردا في كتاب تاج العروس للزبيدي (ت ١٧٩٠م)، ويُشيران إلى فئات مُحدَّدة يختلفُ بها شعبٌ ما عن غيره، وبالتالي فإنَّ تَعميمَ اعتبار عدم وجود المُصطلَح في معاجم وقواميس اللُّغة تَعميمٌ غيرُ موفَّق؛ ذلك أنَّ الكلمةَ وردَت في بعض القَواميس العَربيّة، فكان يَجدرُ الالتفاتُ والإشارةُ إلى ذلك.

وفي إطار البحث في تعريف العُنصريّة، يَتناولُ الكاتبُ مسألةَ ربطها بالعِرق، فيَسعى إلى تفسير مَفهوم "العِرق"، وبيان الالتباس الشّائع بينَ المؤلِّفين والأكاديميِّين في استخدامهم لهذا المُصطلَح بَدلاً من مَفاهيمَ مثلِ "حضارة" أو "شعب" أو "أمّة"[1]، لكنّه في معالجته هذه، يُركِّزُ على تَصنيفات البَشر وتَمييزهم استنادًا إلى خصائصهم الجَسديّة، وفقَ نظريّة «العِرق»، دونَ أن يُناقش الأُسسَ النَّظريّةَ وأسبابَ نشأة هذه النَّظريّة التي أسهمَت في انتشار هذا التَّمييز وتَعميمه على المُستوى النَّظريّ، وتَجلِّيه لاحقًا في المُمارسات العُنصريّة، ويُعدُّ التطرُّقُ إلى هذه الأُسس أمرًا جوهريًّا؛ إذ إنَّه يَكشف مَدى هشاشة تلكَ النَّظريّات التي حكمَت العالمَ، وخلَّفَت وراءَها تاريخًا حافلاً بالمُمارسات غير الإنسانيّة ضدَّ الإنسانيّة ذاتها.

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٢.

ظهرَ مَفهومُ العِـرق باعتباره مصطلحًا علميًّا زائفًا في العَصر الحديـث، وتَحديدًا في القرنَين السّابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ، تَزامُنًا مع صُعود الفكر الاستعماريِّ الأوروبيِّ وتطوُّر الأنثروبولوجيا، ورغم وجودِ تَصنيفاتٍ جسـديّة وثقافيّة بينَ الشُّـعوبِ، منذُ الحَضـارات القديمة، فإنَّ العِرقَ لم يُستخدَمْ آنذاكَ كتَفسيرٍ بُيولوجيٍّ للفروقِ البَشريّة.

وقد أغفلَ الكاتبُ الإشارةَ إلى أنَّ الاكتشافاتِ العلميّةَ الحديثةَ، وخُصوصًا في مجال الجينات والحَمضِ النَّوويِّ (DNA)، أثبتَت أنَّ التنـوُّعَ داخلَ العِرقِ الواحد يَفوقُ الفُروقاتِ بينَ الأعراقِ المُختلفة، ممّا أسـقطَ الأسـاسَ البيولوجيَّ لهذا التَّصنيف؛ كما بيَّنَت الدِّراساتُ أنَّ العِرقَ ليس تَصنيفًـا علميًّا دقيقًا، بل بناءٌ اجتماعيٌّ، وبهذا إشـارةٌ إلى كونه قد جرى تَوظيفُه سياسـيًّا لإدامة الفُروقاتِ بينَ البَشر، وهو جانبٌ جوهريٌّ لم يَتطرَّقْ إليه الكاتبُ.

الفصل الأوّل: المُقدِّمات

يَتناول الكاتبُ في هذا الفصل قضيّتَين محوريتَين يَعتبرُهما أساسًـا لدراسـة العُنصريّة، وهُما الرقُّ ومُعاداةُ السّاميّة، فيَسـتعرضُ نظامَ الرقِّ في العَهد الرُّوماني، مُشيرًا إلى أنَّ العبوديّةَ لم تكنْ مُقترنـةً بعرقٍ مُعينٍّ، بل كانَت تَطالُ أيَّ فـردٍ غريبٍ عن المجتمع، حتّى وإنْ كانَ مُواطِنًا رُومانيًّا؛ إذ يُمكن أن يقعَ في الأسر ويعامَلَ بوصفه رقيقًا خارجَ حدودِ بلاده.

أمّا في سياق مُعاداة السّاميّة، التي باتَت تُحصَرُ غالبًا في اضطهاد اليَهود، فيَسعى الكاتبُ إلى تسليط الضَّوءِ على وضعِ اليَهودِ قبلَ ظهورِ المَسيحيّة، مُوضِّحًا أنَّ العَداءَ تجاهَهم في النُّصوص الإنجيليّـة، ومـن قِبَلِ اليونان والرُّومـان، كان دينيًّا بَحتًا، ولم يكنْ قائمًا عـلى تَمييزٍ عُنصريٍّ أو عِرقيٍّ، من هنا يُؤكِّدُ الباحثُ ضرورةَ التَّفريق بينَ مُعاداة السّـاميّة ومُعاداة اليَهوديّة (الحاخاميّة)؛ إذ إنَّهما مفهومان متمايزان في جَوهرِهما[1]. كما يُوضِّح أنَّ العَداءَ بينَ المَسـيحيِّينَ واليَهودِ في مراحله الأولى نشـأ من دافعٍ دينيٍّ خالصٍ؛ حيثُ سَعى كلُّ طرفٍ إلى الحِفاظ على نقاء عَقيدته ومَنعِ التأثيرِ العقديّ المُتبادَل[2].

ولكنْ معَ مرورِ الزَّمنِ، شـهدَت هذه المُعاداةُ الدِّينيّةُ تحوُّلًا جذريًّا في العُصور الوُسـطى، ولا

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٣٦.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص ٤٠.

سـيَّما في عهد «الفرنك»؛ حيثُ أصبحَت مُرتبطةً بعَواملَ اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة[١]، وبرزَ مَفهومُ «نقاءِ الدَّم»، الذي أحدثَ نقلةً نَوعيّةً في النَّظرة إلى اليَهود؛ إذ لم يعد التَّمييزُ قائمًا على أُسس دينيّةٍ فحسب، بل اتَّخذَ طابعًا عرقيًّا واضحًا، ممّا اعتُبرَ بحسب الكاتبِ أُولى بوادرِ العُنصريّة[٢].

من اللاّفـت أنَّ الكاتبَ يُركِّزُ في تَحليله للعُنصريّة على مُعاداة السّـاميّة، ممّا يَحصر دراسـتَه في المُمارسـات الأوروبيّة ضـدَّ اليَهود، مُتجاهلاً أشـكالاً أُخرى، لا سـيَّما العُنصريّة اليَهوديّة نفسُها، التي تَستند إلى مفهوم «التفوُّق اليَهوديّ» و«شعب الله المُختار»؛ إذ تُعتبرُ اليَهوديّةُ حالةً خاصّةً تمتازُ على سـائر الأجناسِ البَشريّة، وقد أشـار المُفكِّرُ (موسى هـس) لذلك بقوله: «إنَّ العرقَ اليَهوديَّ من العُروق الرئيسـة في الجنس البشريِّ، وقد حافظَ على وحدته على الرَّغم من التأثـيرات المُناخيّة عليه، كما حافظَت السِّـمةُ اليَهوديّةُ على نَقائها عـبرَ العُصور»[٣]، كما يقول الزَّعيمُ الصهيونيُّ (آحـاد هاعام): «إنَّ اليهوديَّ هو الرَّجلُ المُتفوِّق، وهو غايةٌ في حدِّ ذاته، وإنَّ العالَمَ خُلق من أجله»[٤].

إنَّ هذه التَّصريحات لا تتأتَّى من فراغٍ فكريٍّ وديني، فقد وثَّقَت النُّصوصُ التَّوراتيّةُ، مثل سفر يشـوع، أوامرَ تاريخيّةً بإبادة شعوب بأكملها، كما عانى السّـامريونَ بسبب عدم اعتبارهم جزءًا أصيلاً من الهويّة اليَهوديّة، وهذا يَحتاج دراسةً مُفصَّلةً حولَ العُنصريّة اليَهوديّة استنادًا إلى الكتاب المُقدَّس ليس هنا مَوردُها، ولكن ما يُمكن قولُه أنَّ العُنصريّةَ اليَهوديّةَ تُمثِّل أبرزَ أشكال العُنصريّة في العصر الحديث، وإغفالُها في دراسة تقدُّم نفسها على أنَّها دراسةٌ شاملةٌ عن العُنصريّة، يَقدَحُ في شُموليّة هذه الدِّراسة، ويُقوِّضُ نزاهةَ الطَّرحِ الذي يَتبنّاهُ كاتبُها.

الفصل الثّاني: البَوادر

يُناقش الكاتبُ فيه التحوُّلاتِ التي شـهدتها العصورُ الوُسـطى، نتيجةَ الاكتشـافاتِ الجغرافيّة،

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص ٤١.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٤٦.
٣ - مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينيّة: الصهيونيّة والعنصريّة بين الفكر والممارسة، ص١٣.
٤ - إحسان الكيالي: العنصريّة والفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا وإسرائيل، ص٢٣.

وانهيارِ الهَيمنة المَسـيحيّة في أوروبا، وما أعقبَ ذلك من تغيُّرات أدَّت إلى ظهور عالم جديد، تمَثَّلَ في اكتشاف الشُّعوب الأصليّة في الأميركيَّتين (الهنود)، وتوسُّع تجارة العبيد، وصُعود نظريّة الطَّبقات.

يُشـير الكاتبُ إلى أنَّ الاستيلاءَ على المُسـتعمرات الإسبانيّة كان له دورٌ محوريٌّ في استرقاق السُّكان الأصليِّينَ (الهنود)، تحت ذريعة أنَّهم «مَخلوقات دُونيّة، أرقّاء بالطَّبيعة»[1]، وفي مواجهة هذه المُمارسات، حاولَ بعضُ اللاهوتيّينَ لاحقًا الدِّفاعَ عن حقوقِهم، مُؤكّدين أنَّهم ليسوا مجرَّدَ كائنات شبيهة بالحيوانات، بل يمَتلكون العَقل، الذي يمَنحُهم القابليّةَ لتلقِّي الإيمان الكاثوليكيِّ. غـير أنَّ الكاتبَ لم يتطرَّقْ إلى نقد هذه الفكرة؛ إذ إنَّ دفاعَ بعضِ اللاّهوتيّينَ عن حقوق الهُنود لم يَكن سِوى إعادة صياغة للتَّمييز نفسه؛ حيثُ تمَّ اشتراطُ امتلاكِهم للعَقل القادر على تلقِّي الإيمان كي يُعترف بهم بوصفهم كائنات بشريّة[2]، وبالتالي فإنَّ معيارَ التفريق بينَ البشر لم يكنْ وُجودَهم الإنسانيَّ في حدِّ ذاته، بل مَدى توافُقِهم مع النَّموذج الكاثوليكيِّ المُقدَّس.

ويَكشـف هذا الموقفُ عن التحيُّز العَميق الذي طَغى عـلى الفكر الأوروبيِّ آنذاكَ؛ حيثُ لم يكنْ مفهومُ الإنسان مُستقلاًّ عن العَقيدة الدِّينيّة، بل خضعَ لتقويم مَبنيٍّ على مَدى تقبُّله للنَّموذج المَسـيحيِّ، ويَعكس ذلك نظرةً أنثروبولوجيّةً كنسيّةً ترسَّخَت لدى بعضِ المُفكِّرينَ اللاّهوتيِّينَ، الذين اعتبروا أنَّ العقلَ المَسيحيَّ هو النَّموذجُ الأسمى، الذي يَستحيل أن يَرتقيَ إليه مَن وُصِفوا بـ «البدائيِّينَ» أو «البرَابرة»، ويَبدو أنَّ ذلكَ له امتدادًا فكريًّا في التكوّن التّاريخيِّ للغرب الأوروبيِّ؛ حيثُ جعلَ النَّزعةَ الإنسانيّةَ «تقتصرُ على المُنتسبينَ إليه، مع الاعتقاد بأنَّ الشُّعوبَ الأخرى كانَت مُتخلِّفةً، وتَعيشُ وفقَ مُواصفات العُهود السَّحيقة، أي أنَّها بدائيّةٌ»[3].

وفي سياق الحديث عن تجارة العَبيد، يُوضِّح الكاتبُ أنَّ السببَ الرَّئيس وراءَ استعباد الأفارقة ونَقلهم بـينَ إفريقيا وأوروبا وأميركا، كان الاعتقادُ بأنَّهم عرقٌ دونيٌّ بطَبيعته[4]، وقد اسـتندَ هذا التَّصنيفُ إلى لون بَشرتهم الذي ميَّزَهم عن الوَثنيِّينَ الأوروبيِّينَ البيضِ الذين اعتنقوا المَسيحيّةَ، فبينَـما كان يُمكن دمجُ هـؤلاءِ الأخيرينَ في المُجتمعات المَسـيحيّة، ظلَّ الأفارقـةُ يُنظَرُ إليهم

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٥١.

٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٥٢.

٣ - إدغار موران: ثقافة أوروبّا وبربريّتها، ص٢٥؛ راجع أيضًا طلال عتريسي: التحيّز الغربي ضدّ حقوق الإنسان.

٤ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٥٤.

باعتبارهم أدنى مَرتبة، حتّى بعدَ تَعميدهم؛ لأنَّ الاختلافَ الجسـديَّ (لـون البشرة) أُعيد تأويلُه باعتباره دليلاً على الفُروقات الجوهريّة بينَ البَشر، وليسَ اختلافًا سطحيًّا عابرًا.

أمّـا في مناقشـته لنَظريّة الطَّبقات، فيُشـير الكاتبُ إلى أنَّ الاختلافـات الوطنيّةَ بدأتْ تُفسَّر بالخُصوصيّات التي تمتازُ بها الجماعةُ، فأصبحَت كلُّ جماعة تمَتازُ عن غيرِها بناءً على عناصرَ مثلِ اللُّغة والقوّة وغيرِها من السِّمات الثَّقافيّة والاجتماعيّة، ممّا أدَّى إلى فكرة تفوُّق بعضِ الأمم على غيرِها؛ كما يُوضِّحُ أنَّ نظريّةَ الطَّبقات أسـهمَت في دمج التَّمييز الطَّبقيِّ بالتَّمييز الإثني؛ إذ بدأ المُفكِّرونَ الأوروبيُّونَ بتَصنيف الشُّعوب بناءً على أصولهم العِرقيّة، فجرى تمَجيدُ أو تَحقيرُ بعـض الجَماعات مثل العنصر الجرمانيِّ أو العنصر الرُّومانيّ، وقد أسـهمَ هذا الاتِّجاهُ في بروز مُمارسـات علميّة زائفة داخلَ الأوسـاط الأنثروبولوجيّة؛ حيث تمَّ التعامُلُ مع مُعطيات مُنحازة وخادعة بوَصفها حقائقَ علميّة، الأمر الذي أرسى الأسُس الفكريّةَ الأولى للعُنصريّة الحَديثة.

الفصل الثالث: المذاهب العُنصريّة

يَسـتعرض الكاتبُ في هذا الفصل المذاهبَ العُنصريّة، من خلال ثلاث شخصيّات بارزة في هذا المجال: (آرثر دي غوبينو)، و (هـ. ش. شامبرلين)، و(فاشييه دي لابوج)، مُحلِّلاً أطروحاتهم التي قامَت على تصنيف الأعراق وتمَايُزها، ومُناقشًا الأُسس التي استندوا إليها، ثمّ يُفنِّدُها، مُبرزًا تناقضات بعضها وأبعادَها الأيدولوجيّة.

يستهلُّ الكاتبُ عرضَه بمذهب (غوبينو)، الذي أسَّسَ نظريّتَه على مبدأ حتميّة العِرق في تكوين مَصير الحَضارات[1]؛ إذ رأى أنَّ سـقوطَ المجتمعات لا يُعزى إلى تدهوُر القِيَم وفشلِ الأنظمة، بل إلى اختلاط الأعراق وفقدان العِرق النَّقيِّ الأسـمى. وقد استندَ إلى التَّصنيف العِرقيِّ الشّائع في عصره، الذي قسَّمَ البشرَ إلى ثلاث فئات رئيسة:

- العِرق الأسود: وُضع في أسفل السُّلَّم الاجتماعيِّ، واعتُبر تجسيدًا للهَمجيّة والتخلُّف.
- العِرق الأصفر: احتلَّ مرتبةً وُسطى.
- العِرق الأبيض: عُدَّ أسمى الأعراق وأقدرَها على الإبداع والسَّيطرة، بفضلِ ما يتمتَّعُ به من ذكاء ويَقظة، مَكَّناهُ من فرض هيمنته على بقيّة الأعراق.

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٦٣.

لم يَكتفِ (غوبينو) بهذا التَّصنيف، بل أضافَ إليه تقسيمًا إنجيليًّا للعِرق الأبيض، فميَّزَ الحاميينَ والسّاميّينَ والجافتيّين، حيثُ رأى أنَّ أبناءَ (سام) و(حام) عندَ احتكاكِهم بالسُّودِ جَرى تَقديسُهم باعتبارهــم آلهة، ممّا أفضى إلى أنْ تكونَ السُّــلطةُ الأولى ثيوقراطيّــة، إلى أن جاءَت الفتوحاتُ الإسبانيّةُ لأميركا، فالتقَى العِرقُ الأبيضُ بالسُّكان الأصليّينَ الذين كانوا من العِرقِ الأبيض، فانتقلَ الحُكمُ حينَها إلى النِّظامِ الجمهوريِّ والأرستقراطيِّ.

بلغَــت نزعةُ (غوبينو) العِرقيّةُ ذروتَهــا عندَما اعتبرَ أنَّ الجافتيّينَ هم الآريُّــونَ، ويمُثِّلونَ أرقى الأعــراقِ على الإطلاق، بل ذهبَ إلى القولِ بأنَّ جمالَهم وحدَه كان كفيلاً ببَثِّ الفرحِ في العالَم، ودَليلاً على تفوُّقِهم العَقليِّ والحضاريِّ، لكنّ الكاتبَ في هذا السِّياق لم يَكتفِ بسَردِ هذه الرُّؤية، بــل عمدَ إلى تَفكيكِها ونَقدهــا مُعتبرًا أنَّ طروحاتِ (غوبينو) أقــربُ إلى الخيالِ الأدبيِّ منها إلى البَحــث العلميِّ، مُؤكِّدًا أنَّ هذه النَّظريّةَ لم تكنْ ســوى أداةٍ أيدولوجيّــةٍ لتبريرِ مَواقفِ (غوبينو) السياسيّةِ وتَحقيقِ غاياتِه العُنصريّة.

يَنتقلُ الكاتبُ بعدَ ذلك إلى (هوســتون ســتيوارت شــمبرلين)، الذي تبنَّى مقاربةً مُختلفةً عن (غوبينو)، إذ رفضَ الاعتمادَ على الخصائصِ الجســديّة والقياســاتِ الأنثروبولوجيّةِ وحدَها في تحديدِ العِرق، وطرحَ بَدلاً منها معيارًا ثقافيًّا وخُلُقيًّا؛ فوَفقًا لـ(شمبرلين) مَن يتمتَّعُ بمُستوًى ثقافيٍّ مُعينٍ لا يَكتفي بالتَّمييز بينَ الأعراق، بل يَستطيعُ تحديدَ أصله العِرقيِّ بنفسه، ممّا يَجعلُه قادرًا على التَّفرقةِ بين العِرقِ الصّافي النَّبيلِ والعِرقِ المُختلطِ الفَوضويِّ؛ وبذلك فهو لا يَنفي وجودَ التَّفاضُلِ العِرقيِّ، بل يَرى أنَّ التَّمايُزَ الحَقيقيَّ يَكمُنُ في مَدى قدرةِ الفردِ على إدراكه، إذ إنَّ «وجودَ الأعراقِ حقيقةٌ بَديهيّةٌ، ونَوعيّةَ العِرقِ قيمةٌ مُطلقةٌ تتحدَّدُ من خلالِ التَّجربةِ المُباشرة»[1].

أمّا فيما يتعلَّقُ بانحدارِ العِرق، فقد رأى (شمبرلين) أنَّه ظاهرةٌ يُمكنُ مُعالجتُها عبرَ إعادةِ تكوينِ العِرقِ النَّبيلِ من جديد، مُستندًا إلى نظريّةِ (داروين - Darwin) في التَّهجينِ، حيثُ وَضعَ خمسةَ قوانينَ رئيسة لضمانِ تكوينِ الأعراقِ النَّقيّة:

- وجودُ مادّةٍ أُولى ذاتِ نوعيّةٍ مُمتازة، لا يُدري من أينَ يمُكنُ أن تأتي.
- استمرارُ زواجِ القُربى لفترةٍ طويلةٍ للحفاظِ على نقاءِ العِرق.
- حقُّ الانتخاب، وهو آليّةٌ لفَرزِ العناصرِ المَرغوبِ في إعادةِ إنتاجِها واستبعادِ العناصرِ الأخرى.

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٨٣.

- ضرورةُ الاختلاط العِرقيِّ، شرطَ أن يكونَ مَضبوطًا ومَدروسًا.
- إخضاعُ عمليّةِ التَّهجينِ لمَعاييرَ صارمةٍ، بحيثُ يتمُّ اختيارُ أنواعٍ مُعيَّنةٍ من التَّزاوُجِ دونَ غيرِها.

يُلاحِظُ الكاتبُ أنَّ اليهودَ وَفقًا لـ(شمبرلين) كانوا نتيجةَ تَهجينٍ غيرِ مُتجانسٍ بين نماذجَ بشريّةٍ مُتباينة، ممّا جعلَهم عِرقًا غيرَ مُتماسك، لكنَّهم وبعدَ إدراكِهم لهذا العَيب، اتَّخذوا تدابيرَ لإعادة تأصيلِ عِرقِهم من خلال بعضِ التَّدابيرِ والمُمارساتِ التي تَتلاقى إلى حدٍّ بعيدٍ معَ القوانينِ التي اقترحَها (شمبرلين) نفسُه، منها مَنعُ الرَّجلِ اليَهوديِّ من الزَّواجِ بغيرِ اليَهوديّةِ وغيرها. كما يُوضِّحُ الكاتبُ أنَّ مُعاداةَ اليهودِ لم تَعدْ قائمةً على أُسسٍ دينيّةٍ أو اقتصاديّةٍ، كما في العصورِ الوُسطى، بل تحوَّلَت إلى معاداةٍ عِرقيّةٍ مَحضة، وفي هذا السِّياقِ تحدَّثَ (شمبرلين) عن تفوُّقِ الجرمانِ بنفسِ الحَماسِ الذي تحدَّثَ به (غوبينو) عن الآريِّينَ، مُعتبرًا أنَّ الجرمانَ هم العِرقُ النَّبيلُ الذي يَنبغي الحفاظُ عليه من التلوُّثِ العِرقيِّ[1]، بل ذهبَ أبعدَ من ذلك، فاعتبرَ أنَّ المسيحيّةَ في جوهرِها تَعكسُ الرُّوحَ الآريّةَ الصّافيّةَ، وأنَّه لا يُوجَدُ شعبٌ أجدَرُ من الجرمانِ بتَمثُّلِ تعاليمِها[2].

أخيرًا، يَعرضُ الكاتبُ أفكارَ (فاشييه دي لابوج)، الذي طوَّرَ مجموعةً من القوانينِ العُنصريّةِ التي عزَّزَت ما يُعرَفُ بـ «الغَطرسة العِرقيّة»، ومن أبرزها:

- قانونُ المُؤشِّرِ المَدينيِّ، الذي جعلَ المُؤشِّرَ الرأسيَّ لدى سكّانِ المُدنِ أدنى من نظيرِه لدى سكّانِ الأرياف المُحيطينَ بها.
- قانونُ المُثقَّفينَ؛ حيث اعتبرَ أنَّ جماجمَ المُثقَّفينَ أكثرَ تطوُّرًا وفقَ قياساتٍ أنثروبولوجيّة مُعيَّنة.

يُشير الكاتبُ إلى أنَّ هذه القوانينَ أسهمَت في ترسيخِ المدرسةِ الأنتروبوسوسيولوجية التي يَنتمي إليها (لابوج)، والتي بلغَت ذروتَها مع تمَجيدِ إنسانِ الشَّمالِ الأشقرِ، مُستطيلَ الرّأسِ، باعتبارِه النَّموذجَ الأسمى، وقد أصبحَت المذاهبُ العُنصريّةُ، التي كانَت في السّابقِ مُجرَّدَ نظريّاتٍ، موضِعَ تَطبيقٍ عَمليٍّ مع نشوءِ الاشتراكيّةِ الوطنيّةِ (النازيّة)، وهو ما سيَتناوَلُه الكاتبُ في الفصلِ الرّابع.

---

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٩١.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٩٣.

الفصل الرابع: الاشتراكيّة الوطنيّة

يَستعرض الكاتبُ في هذا الفصل كيفَ انتقلَت المذاهبُ العُنصريّةُ من مُجرَّد نظريّات وأفكار إلى واقـع تطبيقيٍّ، على يد الألمان، بقيـادة (هتلر) و(روزنبرغ) وغيرهما، فقد أتاح اسـتيلاؤُهم على السُّـلطة المَجالَ لترَجمة رُؤاهُم المُتطرِّفة إلى سياسات مُمنهجة تَهدف إلى التَّطهير العرقيِّ واسـتعادة الصَّفاء الآريِّ، ولم يكنْ عداؤُهم مُقتصرًا على اليَهود فحسـب، بل شـملَ المَسيحيّةَ وغيرَها من الأيدولوجيّات التي رأوا فيها تَهديدًا للوجود الألمانيِّ.

اعتبرَ (هتلـر) أنَّ الطَّبيعةَ تَرفضُ اختلاطَ الأعراق المُتفوِّقة بالدُّونيّة، ورأى في التَّهجين خطيئةً كُبرى تُخالفُ إرادةَ الخالق الأزليِّ، فالأُمم التي تَخلطُ دماءَها مَحكومٌ عليها بالاندثار، وليس في ذلـك ظُلمٌ لها، بل إعادةُ الحقِّ إلى نصابه؛ إذ إنَّ الخَطيئةَ ضدَّ الدَّم والعرق هي الخَطيئةُ الأصليّةُ لهـذا العالَم، وعلامةٌ على نهايته المَحتومة[1]، ويَـرى الكاتبُ أنَّ اليهودَ في نظر هتلر كانوا الأداةَ الشَّـيطانيّةَ التي تَعمل على إفسـادِ العرقِ الآريِّ؛ إذ إنَّ هدفَهم تَدميرُ العرقِ الأبيضِ عبرَ التَّهجين والتَّلويث العرقيِّ[2].

هذا وقد تبنَّـى (روزنبرغ) مقاربةً تاريخيّةً تقومُ عـلى الرُّؤية العرقيّة؛ إذ اعتـبرَ أنَّ تَحالفًا خَفيًّا يَجمع الكنيسـةَ الرُّومانيّةَ والماسونيّةَ واليَهوديّةَ والماركسيّةَ ضدَّ تفوُّق العرق الجرمانيِّ، فبالنسبة له، الشرُّ مُتخَفٍّ تحتَ سـتار التيوقراطيّة الرُّومانيّة، أو الإنسـانيّة الماسونيّة، ممّا جعلَه يَدعو إلى خلق ديانة جديدة، وإلغاء العَهد القَديم بشكل نهائيٍّ؛ باعتبار أنَّ ذلك هو الوسيلةُ الوحيدةُ لحماية الألمان من التَّهويد[3]. وقد شكَّلَ سَنُّ التَّشريعات والقَوانين، التي تُرسِّخُ أيدولوجيّاتهم، وتُؤسِّسُ للعُنصريّة المَنهجيّة، المَرحلةَ التَّمهيديّةَ لعَمليّـات الإبادة الجماعيّة التي مثَّلَت النَّتيجةَ الحَتميّةَ لمَسارٍ طويلٍ من التأسيس الفِكريّ.

الفصل الخامس: المَظاهر المُعاصرة للعُنصريّة

يَستعرض الكاتبُ في هذا الفصلِ موقفَ الولَاياتِ المتَّحدة من الدِّيموقراطيّة وإلغاءِ العُنصريّة،

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص ١٠٧.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٠٨.
٣ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١١٦.

مُقدِّمًا إيّاها كرائدة في هذا المَجال، مُستندًا إلى الخُطوات التي اتَّخذَتْها، كإلغاء الرِّقِّ وإقرار مَبدأ المُساواة بين السُّود والبيض في المُواطَنة والحُقوق؛ لكنّ هذه المُساواةَ، وإن كانَت قد أُعلنت رسميًّا، ظلَّت تُعاني من عراقيلَ عديدة حالَت دونَ تمتُّع السُّود بحُقوقهم فعليًّا؛ حيثُ أقرَّت في محافلَ مُختلفة شروطًا وضوابطَ تُقيِّدُ حصولَهم على الامتيازات نفسها التي يَحظى بها البيضُ، دون أن تتعارضَ هذه الشُّروطُ ظاهريًّا مع القانون المُعلَن. ومع مرور الوقت، ظهرَت قوانينُ جديدةٌ عُرفت باسم «قوانين جيم كرو»، رسَّخَت الفصلَ العُنصريَّ في شتَّى مَناحي الحياة العامّة، كما رافقَها عنفٌ مُمارَسٌ ضدَّ السُّود، ممّا أفضى إلى انتفاضة عِرقيّة واسعة النِّطاق. فنَشطَت الحَركاتُ الحُقوقيّةُ التي بفَضل نِضالها، بحسب الكاتب، أُلغيت هذه القوانينُ العُنصريّةُ تدريجيًّا، وأصبحَت المُساواةُ مُكرَّسةً في نصوص القانون، ولكن لم يُشر الكاتبُ إلى النَّزعة العُنصريّة التي قام عليها وجودُ الولايات المتَّحدة من الأساس، بإبادة السكّان الأصليِّينَ، ووَضع الأوروبيِّينَ مَكانَهم.

يَنتقل الكاتبُ بعد ذلك إلى جنوب أفريقيا، حيثُ يُوضِّحُ كيفَ أنَّ الفصلَ العُنصريَّ هناكَ لم يكنْ مُجرَّدَ مُمارسة اجتماعيّة، بل كان مَنظومةَ قوانينَ ازدادَت شدّتُها تحتَ مُسمّى «الأبارتايد»؛ وتَعني هذه الكلمةُ حرفيًّا «الانفصال»، لكنَّ البعضَ أصرَّ على ترجمتِها بـ«التطوُّر المُنفصِل» في محاولة لمَنحها طابعًا أكثرَ شرعيّةً.

استندَت هذه السِّياسةُ إلى العودة إلى نمط الفَصل العِرقيِّ التَّقليديِّ؛ حيثُ يَعيش البيضُ وغيرُ البيض في مناطقَ مُنفصلة، وهو ما استدعَى إعادةَ تقسيم الأراضي في جنوب إفريقيا، ووَفقًا للحزب الوطنيِّ كان هذا الحلُّ مُبرَّرًا خُلُقيًّا وعقلانيًّا، لكنّه كان صعبَ التَّنفيذ نظرًا لاعتماد البيض الكبير على اليد العاملة غير الأوروبيّة، وهكذا يَكشف الكاتبُ أنَّ الهدفَ الحَقيقيَّ للأبارتايد، وَفقًا لما أقرَّه زعماءُ جنوب إفريقيا أنفسُهم، لم يكنْ إلا إطالة أمد سيطرة البيض[1].

ويَشرح الكاتبُ كيف تُرجمت هذه السِّياسةُ إلى إجراءات تَقييديّة وقوانينَ صارمة، ورغم تبريرات ذوي العِرق الأبيض بأنَّ هذه السياسات تَصبُّ في مصلحة السُّود أنفسهم، لكنّ ذلك كان يكشفُ عن قناعة راسخة بتفوُّق العِرق الأبيض؛ حيثُ اعتُبرَ السُّودُ خَطَرًا مُحتمَلاً وأعداءً يَنبغي السَّيطرةُ عليهم. ومعَ تصاعُد الضُّغوط الدَّوليّة والنِّضال الدّاخليِّ، أُلغيت العديدُ من القوانين التي عزَّزَت الفصلَ العُنصريَّ، ليتحوَّلَ الأبارتايد إلى فصلٍ من الماضي.

---

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٤٩.

في سـياق تَحليله للعُنصريّة الحَديثة يَنتقلُ الكاتبُ إلى فرنسا، مُوضِّحًا أنَّها كانَت قد رسَّخَت مبـدأَ رفضِ التَّمييزِ العُنصريِّ في دسـاتيرها، إلّا أنَّ الواقعَ لم يكنْ مُطابقًـا للنُّصوصِ، إذ وقعَت حوادثُ عديدةٌ عكسَت استمرارَ التَّمييزِ العُنصريِّ، ممّا دفعَ إلى نشوء حركاتٍ مُناهضة للعُنصريّة ومُعاداة السّاميّة؛ ويَلفت الكاتبُ إلى أنَّ مُعاداةَ الصّهيونيّة كان جزءًا من سياسة الاتِّحادِ السُّوفياتيِّ الرَّسـميّة، مُتمايزةً عن مُعاداة السّـاميّة في السِّـياق الغربيِّ، وقد شـهدَ العالَمُ اضطرابًا واسعًا إثرَ تصويـت الجَمعيّة الحُكوميّة لهيئة الأُمم في تشرين الثـاني ١٩٧٥م، على قرارٍ يَعتبرُ الصّهيونيّةَ نوعًا من أنواع العُنصريّة والتَّمييزِ العُنصريِّ، لكنّ هذا القرارَ لم يَدُمْ طَويلًا؛ إذ عادَتْ منظَّمةُ الأُمم المتَّحدة لتُصوِّتَ في كانون الأوّل ١٩٩١م بأغلبيّة على إلغائه.

ما يُثير الانتباهَ في هذا التَّحليلِ هو الطَّريقةُ التي يَعرضُ بها الكاتبُ قرارَ الأُمم المتَّحدة؛ حيثُ يُعبِّرُ عن استغرابه من تَوجيه اللَّوم إلى مَن «بقي على قيد الحياة، أو إلى أحفاد ضحايا أفظع إبادة جماعيّة في التّاريخ، بتُهمة أنَّ تصرُّفَهم هو مُماثلٌ لتَصرُّف جَلّاديهم...» [1]، والمُستهجَنُ واقعًا هو إغفالُ الكاتب بَديهيّةَ أنَّ قرارَ الأُمم المتَّحدة أتى نظرًا لما تُمثِّلُه الصهيونيّةُ من نظامٍ سياسيٍّ عِرقيٍّ يُعزِّزُ التفوُّقَ اليَهوديَّ على الآخَرينَ، ويَعمل على إقصاء الفلسطينيِّينَ، وهو ما يَظهر بوضوح في المُمارسات السِّياسيّة للاحتلال الإسرائيليِّ، منذ بدايته في فلسطين وحتّى اليوم، ناهيكَ عن كون الصهيونيّة مَشروعًا غربيًّا استعماريًّا بامتياز، هدفُه إحكامُ السَّيطرة على الشَّرق الأوسط وتَقسيمُه بما يَخدمُ المَصالحَ الغربيّة[2]؛ غريبٌ كيفَ يتمُّ التَّغافُلُ عن حقوق شعبٍ بالحُريّة والكرامة، عندَما يتعلَّقُ الأمرُ بمَصالحِ اليهودِ عالميًّا، وهذا دليلٌ دامغٌ على السِّياسـة الغربيّة العالميّة القائمة على ازدواجيّة المَعايير.

الفصل السادس: علمُ النَّفس الاجتماعي

يَقوم الكاتبُ في هذا الفصلِ الأخيرِ مـن الكتاب بمُعالَجة العُنصريّة من زاويتَين مُتكاملتَين: سـيكولوجيا الفرد والإطار الاجتماعيّ، فمن حيثُ الاسـتعداداتُ الفَرديّةُ، يَرى أنَّ جذرَ النَّزعة العنصريّة يَكمُنُ في رفضِ قَبولِ الآخَرِ كمُختلِفٍ؛ إذ يَميلُ الإنسانُ إلى اعتبار نفسه المِعيارَ الذي

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٥٩.

٢ - محمد محمود مرتضى: الكيان المارق، الغرب المتصهين، والشيطان الأخرس، ص١٦.

يَقيس به الآخَرَ، ويستغرب كيف يمُكنُ له أن يكونَ مُختلفًا عنه، ويُؤكِّدُ الكاتبُ أنَّه لا يَهمُّ إنْ كانَ الفـارقُ بين الأفرادِ حَقيقيًّا أو مُتخيَّلًا؛ إذ إنَّ الإحسـاسَ بالاختلافِ يَتعـزَّزُ في داخل العُنصريِّ، ويَدفعُه إلى التَّعميم المـُـبرِّر لحُكمه على الأفراد إلى جماعات بأكملها؛ ويُبيِّنُ الكاتبُ كيف أنَّ التَّحليلَ النَّفسيَّ غالبًا ما يَربط العُنصريّةَ بنَمط الشَّخصيّةِ المتُسلِّطة؛ حيثُ يَنبع السُّلوكُ العُنصريُّ من نزعة مَرَضيّة تَدفعُ الفردَ إلى البحث عن تَفوُّق زائف، وبهذا السِّـياق يَصفُ الكاتبُ التَّصرُّفَ العُنصريَّ بأنَّه «مرضٌ يَنبثقُ من نفس التَّفكيرِ لحاملِ الأوسمة غيرِ الشَّرعيّة»[١].

إلى جانبِ العَواملِ النَّفسـيّة، يُسلِّطُ الكاتبُ الضَّوءَ على الدَّور الحاسم الذي يَلعبُه المُجتمعُ في تكوين الشَّـخصيّة العُنصريّة، فالأُسرةُ، باعتبارها المُجتمعَ المُصغَّرَ، تَغرسُ بذورَ التَّمييز منذُ الطُّفولة، بينَما تُعزِّزُها السِّياساتُ والمُمارساتُ الاجتماعيّةُ في بعض الدُّول، خاصّةً في تَعامُلِها مع المُهاجرينَ، فحينَ يُحرَمُ المُهاجرونَ من الامتيازات القانونيّة والاجتماعيّة، يُدفعونَ إلى الهامش السُّـفليِّ من الهَرَمِ الاجتماعيِّ، مـمّا يُكرِّسُ التَّراتُبيّةَ العِرقيّةَ. ويَختـم الكاتبُ هذا الفصلَ بطرحِ تساؤُلٍ مَفتوح حولَ حَتميّة السُّلوكِ العُنصريِّ عندَ الإنسان.

وفي ختامِ الكتابِ يُشدِّدُ الكاتبُ على ضرورة التَّمييز بينَ مُستويات العُنصريّة المُختلفة؛ حيثُ يُحدِّدُ ثلاثَ درجاتٍ رئيسـة: العُنصريّةُ العُدوانيّةُ المُدمِّرةُ، وهي الأشـدُّ تطرُّفًا؛ حيث تَسعى إلى الإبادة أو الإقصاءِ العَنيف للأعراقِ الأخرى، كما فعلَ النّازيُّونَ؛ العُنصريّةُ القانونيّةُ التي لا تَلجأ إلى العُنـفِ الصريح، لكنَّها تضعُ حواجزَ قانونيّـةً للفصلِ بينَ الأعراق؛ والعُنصريّةُ المتُخفِّيّةُ في المُجتمعاتِ الحَديثة، وهي الأكثرُ انتشارًا في يَومنا هذا مُتمثِّلةً في التَّوظيفِ والإسكانِ والتَّعليمِ وغيرِها من المَجالات.

ويَختتمُ الكاتبُ كتابَه بمُلاحظة لافتة، مفادُها أنَّ كلَّ إنسان يَحمل بداخله عُنصريًّا نائمًا، يتطلَّبُ وَعيًا ذاتيًّا عَميقًا لئلا يُوقَظَ، فاحترامُ الآخَرِ وقَبولُه باعتباره شَريكًا متسـاويًا في الوجودِ الإنسانيِّ هو الرَّكيزةُ الأسـاس لتَجاوُزِ العُنصريّة، كما يُؤكِّدُ على أهميّـةِ التَّوازن بينَ الاختلافِ والتَّعايُش؛ إذ يمُكنُ الإنسـانَ أن يُحافظَ على هويّته الخاصّة دونَ أن يُنكرَ إنسـانيّةَ الآخَر، أو يُحاولَ مَحوَهُ، فالاندماجُ في المُجتمع البَشريِّ لا يَعني الذَّوبـانَ المُطلَقَ، بل يتطلَّبُ الاحتفاظَ بالهويّةِ الفَرديّةِ في إطارٍ مُشتركٍ يَجمعُ بينَ الاختلافِ والتَّعدُّديّة.

---

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٦٣.

رغم أنَّ الكاتبَ تَناوَلَ في هذا الفصلِ العُنصريّةَ من منظور علمِ النَّفسِ الاجتماعيِّ، لكنَّ طرحَه يَبقى قاصِرًا عن معالجةِ جُذورِها العَميقةِ؛ إذ لا يَتناولُ المعيارَ الحَقيقيَّ للتفوُّق الإنسانيِّ الذي لا يَقوم على العرق أو القوميّةِ، بل على مَدى تحقُّق الإنسان بإنسانيّته، فالإنسانُ بما أُودِعَ فيه من عقلٍ وإرادةٍ قادرٌ على الارتقاءِ فوقَ مرتبةِ المَلائكةِ، كما يُمكنُه الانحدارُ إلى أدنى من الحيوانِ إذا فقدَ مُقوِّماتِ العَدلِ والإنصاف.

إنَّ العُنصريّةَ ليسَت مُجرَّدَ سلوكٍ اجتماعيٍّ مُنحرفٍ، بل هي انعكاسٌ لانحرافِ الإنسانِ عن غايتِه الوُجوديّةِ؛ إذ تَقومُ على إنكار مبدأ المُساواةِ، واستبدالِ العَدالةِ بالتَّمييزِ القائمِ على العِرقِ أو اللَّون. وهذا الخَلَلُ في الميزانِ الخُلُقيِّ كانَ عبرَ التّاريخِ أحدَ أهمِّ أسبابِ الصِّراعاتِ والاضطهادِ والاستعمار.

وبهذا فالحَلُّ لا يكونُ عبرَ مُعالَجات سَطحيّة تَعتمدُ فقط على القوانينِ أو الخطاباتِ الخُلُقيّة المُجرَّدة، وإنّما بإعادة الاعتبارِ للقيم التي تُكرِّسُ العَدلَ والإحسانَ. وهو ما أكّدَه الإسلامُ بجَعلِ التَّقوى معيارَ التَّفاضُلِ؛ إذ قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ النّاسَ من عهدِ آدَمَ إلى يَومنا هذا مثلُ أسنانِ المُشطِ، لا فضلَ للعَربيِّ على العَجميِّ، ولا للأحمرِ على الأسودِ إلّا بالتَّقوى»[1]، فالإسلامُ لم يُقدِّمْ هذا المَبدأَ بوصفه مبدأً نظريًّا، بل أرسى قواعدَه في الواقع العَمليِّ؛ بحيثُ جعلَ المُساواةَ أساسَ التَّعامُلِ بينَ البَشرِ، واعتبرَ التَّقوى التزامًا بالحقِّ والعَدلِ، ممّا يَجعلُها السَّبيلَ للقَضاءِ على العُنصريّةِ وإقامة مجتمعٍ تَسودُه العَدالةُ والكرامةُ للجميع.

خلاصة

في الختام يمُكن القولُ إنَّ الكتابَ يَتناولُ جذورَ العُنصريّةِ وتطوُّرَها عبرَ التاريخ، مع تسليطِ الضَّوءِ على أبرزِ النَّظريّاتِ والشَّخصيّاتِ التي أسهمَت في ترسيخِ هذا الفِكرِ، لكنّه لا يَخلو من بعضِ الإشكالاتِ النَّقديّةِ على المُستويَينِ المَنهجيِّ والمَضمونيِّ.

أولًا- غيابُ التَّحليلِ النَّقديِّ العَميق: يَظلُّ طرحُ الكاتبِ في كثيرٍ من المواضعِ أقربَ إلى التاريخِ الوَصفيِّ منه إلى التَّحليلِ النَّقديِّ العَميقِ؛ إذ يَكتفي برَصدِ التطوُّراتِ التّاريخيّةِ والفِكريّةِ دونَ

١ - محمّد الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٤، ص٣٦٢٩.

تقديم تَفكيك جَذريٍّ للأُسس التي قامَت عليها العُنصريّةُ ونقدها.

ثانيًا- تَعميمُ العنوان وتَخصيصُ المَجال: يُعنونُ الكاتبُ كتابَه بـ«العُنصريّة»، لكنّ مُجمَلَ طرحه يُركِّزُ على التَّجربة الغَربيّة للعُنصريّة المُمارَسة ضدَّ اليَهود، بدءًا من نظريّات التفوُّق العِرقيِّ في أوروبا، وانتهاءً بالأنظمة النازيّة والفاشيّة، مُتجاهلاً تناوُلَ العُنصريّة خارجَ هذا الإطار، وهذا يَحدُّ من شُموليّة الكتاب باعتباره دراسةً عن العُنصريّة بوَصفها مَفهومًا عالَميًّا.

ثالثًا: إشكاليّةُ الحياد والمَوضوعيّة: يَبدو المؤلِّفُ حَريصًا على تَقديم المادّة بأسلوب يُوحي بالحِياد الأكاديميِّ، لكنَّه في بعض المَواضع لا يُخفي تأثُّرَه بالتصوُّرات الفكريّة الغَربيّة تُجاهَ بعض القضايا، مثل تعامُله معَ معاداة الساميّة والصّهيونيّة، فهو يَتناول قرارَ الأُمم المتَّحدة عام ١٩٧٥ الذي اعتبرَ الصهيونيّةَ وجهًا من وجوه العُنصريّة، كأنَّه مُجرَّدُ نزعةٍ أيديولوجيّة لا تَستندُ إلى أُسس مَوضوعيّة.

رابعًا: غيابُ الحُلول: في خاتمة الكتاب، يَطرَحُ الكاتبُ بعضَ الرُّؤى في كيفيّة مُواجهة العُنصريّة، لكنَّها لا تتعدَّى الأفكارَ العامّةَ، مثلَ الدَّعوة إلى تقبُّل الآخَر واحترام الاختلاف، في حين كان من المُمكن إغناءُ التَّحليل وإثراؤُه أكثرَ من خلال تفكيك المعيار الحَقيقيِّ لتفوُّق البشر، وإبراز أنَّ العُنصريّةَ ظاهرةٌ بشريّةٌ، وشأنٌ بشريٌّ قد مارسَها اليهودُ أنفسُهم في بعض السِّياقات، كما كان الأجدَرُ تقديمَ حلولٍ عمليّة أكثرَ وُضوحًا.

المصادر والمراجع

- إحسان الكيالي: العنصريّة والفصل العنصريّ في جنوب أفريقيا وإسرائيل، ط١، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧م.
- إدغار موران: ثقافة أوروبّا وبربريّتها، المغرب، دار توبقال للنّشر، ٢٠٠٧م.
- طلال عتريسي: التحيّز الغربي ضدّ حقوق الإنسان، مجلّة جامعة المعارف، العدد ١٣، ٢٠٢٤.
- فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ترجمة عاطف علبي، ط ١، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.
- مؤسّسة الأرض للدراسات الفلسطينيّة: الصهيونيّة والعنصريّة بين الفكر والممارسة، ط١، دمشق، سلسلة دراسات مؤسّسة الأرض رقم ٩، ١٩٨٠م.
- محمّد الريشهري: ميزان الحكمة، ط ١، قم، دار الحديث، ١٤١٦هـ.
- محمد محمود مرتضى: الكيان المارق، الغرب المتصهين، والشيطان الأخرس، مجلّة أمم، مركز براثا للدراسات والبحوث، العدد ٥، خريف ٢٠٢٤م.